في غزوة حنين

بين السياسة الرشيدة والتعمق في الدين

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

قد يكون من المعلوم عند الناس أن التعمق في الدين ليس من الدين في شيء ، وإن كنا في زمن قد انقلبت فيه أوضاع الدين ، وصار التعمق في الدين هو المثل الأعلى في التدين ، وأصبح المتعمقون في الدين قدوة الناس ، منهم تلتمس البركات ، وتقام لهم بعد مماتهم القباب والمزارات

ولكن هناك أمراً طريفاً في باب التعمق في الدين يجهله كثير من الناس ، وقد أردت أن ألفت النظر إليه في عجلة الرسالة الغراء ، فيكون الناس فيه عظة تنفعهم في دينهم ودنياهم ، ويعرفوا أن الدين ليس أذكاراً تتلى ، وأوراداً تكرر كل يوم وليلة ، وقواعد ينظر إلى ألفاظها وحروفها ، ولا ينظر إلى الغاية المقصودة منها ، ولا يلتفت إلى وجه الحكمة فيها ، ليراعى فيها حال الزمان والمكان ، وتؤخذ بشيء من التساهل إذا كان من اللائق أخذها به ، وعدم التقيد بأحكامها وقيودها ، وفي هذا تظهر حاجة المتدين إلى أن يكون عنده شيء من حسن السياسة ، وإلى أن يكون من المرونة بحيث لا يقف جامداً أمام الألفاظ والنصوص ، ولا يؤثرها على الظروف الطارئة ، والأحوال العارضة ، وذلك مالا يمكن اجتماعه مع التعمق في الدين ، والجمود على ما فيه من قواعد وقيود

وكيف لا يكون طريفاً كل الطرافة أن ينكر بعض المتعمقين في الدين على من أرسله الله به ، فيؤدي به هذا التعمق إلى أن يرى نفسه أرسخ منه ديناً ، وأكثر منه رعاية له ، ووقوفاً عند حده وامتثالاً لما جاء به من الأوامر والنواهي ، ولا يحمله على هذا إلا أنه حفظ قاعدة من قواعد الدين ، فأخذها قاعدة مطردة لا تشذ ، ولا يصح أن يؤخذ فيها وقتاً ما بشيء من التسمح ، ولا يمكن أن تتأثر بشيء مما تقتضيه الظروف والأحوال

وقد كانت تلك الحادثة الطريفة في غزوة حنين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم خرج إليها من مكة بعد فتحها ، ومعه الجيش الذي فتح مكة من الأنصار وغيرهم ، وكذلك أهل مكة الذين لم يمض إلا قليل على إسلامهم ، وكان بينهم نفر بقوا على الشرك ، وخرجوا إلى القتال طمعاً في الغنيمة والمال ، وآخرون أسلموا ولم تخلص قلوبهم من أثر الحنين إلى وثنيتهم ؛ حتى إن المسلمين لما انهزموا في حنين أول الأمر فرح كثير من أهل مكة بهزيمتهم ، وقال بعضهم : ألا قد بطل السحر اليوم . وقال قائل منهم : الآن ترجع العرب إلى دين آبائها . وقال أبو سفيان ابن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وكان قد أسلم إلا أن إسلامه كان مدخولاً ، وكانت الأزلام في كنانته

ثم انتصر النبي صلى الله عليه وسلم بفضل من ثبت معه من المسلمين الأولين ، وأصابوا في تلك الغزوة كثيراً من الغنائم ، وكان لقسمة الغنائم قواعد مقررة في الدين ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشأ في هذه الغزوة أن يتقيد بها ، ورأى أن يبسط يده بالعطاء لأهل مكة تأليفاً لهم ، وكان من بسط يده لتأليفه على ثلاثة أصناف : صنف تألفه ليسلم كصفوان بن أمية ، وصنف تألفه ليثبت إسلامه كأبي سفيان بن حرب ، وصنف تألفه دفعاً لشره كعيينة بن حصن والعباس بن مرداس . فأعطى صفوان ابن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء ، وكان قد رآه يرمقه ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هو لك ، فقال صفوان : ما طابت بمثل هذا نفس أحد . وكان ذلك سبب إسلامه . وأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال ابنى يزيد : فأعطاه كذلك ، وقال ابنى معاوية : فأعطاه كذلك ، فأخذ ثلثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة ، وقال : يارب أنت وأبى

المقدار ، وأن يعلم أن الجدود قرينات الفر المتقاعد

وما أحوجنا إلى نوع من الكتاب والشعراء يكفون على القديم ليعرفوا فتنته وجزالته ، فإذا اكتسبوا صناعة لغوية وتم لهم الذوق الأدبي ، طبعوا على غراره ما أرادوا من طريف الفكر ، وبديع الخيال مما تطالعهم به الحياة الجديدة

يا بني ما لك ولشكوى الزمان ، دع قافلة آمالك سائرة ولا تحسب الدهر حلواً كله ...

يا بني كم أحب أن يكون شعرك باسماً كأفكارك في الوضوح ؛ حينئذ أبتسم كما تبتسم ، ويضحكني الدهر كما أضحكك .

محمود البشبيشي

حاشية : كل ما جاء على لسان ولدنا الأديب « حسين محمود البشبيشي » فهو له .

يا رسول الله : لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ! وقد سالمتك فنعم المسالم أنت ! هذا غاية الكرم جزاك الله خيراً . وأعطى العباس بن مرداس دون عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، فسخط ما أعطاه دونهما ، وقال فى ذلك يعاتب النبي صلى الله عليه وسلم :

وكانت نهـــاباً تلافيتهـا ... بكرّى على المهر فى الأجرع
فأصبح نهبي ونهب العُبيـ ... ـد بين عُيَيْنَةَ والأقرع
وما كان حصن ولا حابسٌ ... يفوقان مِرْداس فى المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يُرْفع

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذهبوا فاقطعوا عنى لسانه . فأعطوه حتى رضى

فلما رأى كل هذا ذو الخويصرة التميمى ، وكان امرأ متعمقاً فى دينه ، جاء فوقف على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعطى الناس ، فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أجل ، فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت . فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى أقتل هذا المنافق . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى . دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرَّمية يُنظر فى النصل فلا يوجد شىء ، ثم فى القدْح فلا يوجد شىء ، ثم فى الفوق فلا يوجد شىء ، سبق الفرث والدم

فهذا التعمق فى الدين قد أدى بذى الخويصرة إلى هذا الجهل الفاضح ، وأوقعه فى ذلك الجمود القبيح ، وجعله ينسى مقام النبوة فيتعالى عليها ، ويظن أنه أرسخ فى الدين منها ، وينكر على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ فى قسمة غنائم حنين بشىء من حسن السياسة ، ويتسمح فيما وضع فى قسمة الغنائم بعض التسمح ، ولا يعرف أن حسن السياسة من الدين ، وأن الإسلام ليس بشىء من ذلك التزمت الذى يضيق بالتسمح ، ويأبى الأخذ بشىء من التساهل . وما أكثر الآن أولئك المتزمتين بيننا وما أحوجهم إلى الانتباه بما أوقع فيه التزمت ذا الخويصرة ، فلا تضيق نفوسهم بما تدعو إليه الضرورة من بعض الخروج على المألوف ، ولا يقفون جامدين أمام الألفاظ والحروف ، لأن منطق الألفاظ لا يقوى على منطق الحوادث ، فيجب إخضاعها لها ، ولا يصح أن تقف حجر عثرة فى سبيلها

وقد يظن بعض الناس أن ذا الخويصرة كان من أولئك المنافقين الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، ويرى أن الذى أوقعه فى الإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم نفاقه لا تعمقه فى الدين ، ويأخذ فى هذا بظاهر قول عمر رضى الله عنه : دعنى أقتل هذا المنافق . ولكن الحقيقة أن ذا الخويصرة لم يكن من أولئك المنافقين ، وإنما كان طليعة لصنف آخر يخلص فى دينه عن جهل ، ويأخذ الدين على أنه قواعد ورسوم ، فيبالغ فى الجمود عليها ، ويقف عند ألفاظها وحروفها . وذلك الصنف من الناس هو الذى سمى فيما بعد باسم الخوارج . وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عنهم أهم كفار ؟ فقال : من الكفر فرُّوا . فقيل : أمنافقون ؟ فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً . فقيل : ما هم ؟ فقال : أصابتهم فتنة فَعَمُوا وصَمُّوا

وتلك الفتنة التى ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم هى فتنة الغرور بالتشدد فى الدين ، والوقوف عند جمود القواعد والرسوم ، وكل شىء جاوز حده انقلب إلى ضده ، والإسلام وسط بين التساهل والتشدد ، ولهذا جاء ديناً عاماً لكل البشر ، وكانت أحكامه صالحة لكل زمان ومكان .

عبد المتعال الصعيدى

وحى الأحاديث المحمدية
سيرة الرسول من أحاديثه
بقلم محمود على قراعة المحامى
٥٦٠ صفحة الثمن ١٥ قرشاً والبريد ٤ قروش
يطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر